مشاهدات ابن شاهين للغزو والقرصنة الصليبية لبعض مدن الغرب الإسلامي والأندلس من خلال مُؤَلَف "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" ٨٦٦-٨٧١هـ/١٤٦١-١٤٦٦م

د. عائشة مرشود حميد الحربي
Ay.1430@hotmail.com
أستاذ التاريخ الوسيط المشارك قسم العلوم الاجتماعية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة طيبة – السعودية

ملخص البحث:

تعد رحلة ابن شاهين أولى الرحلات التي خرجت من الشرق إلى الغرب، وكان توقيتها ذا أهمية خاصة؛ نظرًا لما كان يجري في بلاد الغرب الإسلامي من انهيار وسقوط دول، وقرصنة وغزو صليبي، وحروب الاسترداد النصرانية Reconquista ريكونكيستا (٩٨-٨٩٧هـ/٧١٧-١٤٩٢م) في بلاد الأندلس، وهذه الحوادث من الصعب أن نجد لها أثرًا في مصادر تاريخ الغرب الإسلامي المعاصرة؛ لذلك أصبحت هذه المشاهدات صورة صادقة عن تلك الحوادث الجارية، بل وخير معين لمؤرخي الغرب الإسلامي.

وكان ابن شاهين شاهد عيان على الوقائع في الغرب الإسلامي، والتي قد ساعد على قيامها بل وزيادتها مساندة البابوية؛ لأنها تعتبر بلاد الأندلس ملكًا خالصًا لها؛ مما أدى إلى تزايد قوة هذه الممالك النصرانية وعنصريتها، حيث كان البابا أنوسنت الثالث Innocent III (٥٩٤ -٦١٢هـ /١١٩٨-١٢١٦م) صاحب اليد العليا في إثارة الحملة الصليبية على بلاد الأندلس، وشجع المتطوعين من غرب أوروبا على المشاركة في الحروب الدينية ضد المسلمين، فقدم الفرنسيون، والإنجليز، والألمان، ليعبروا عن حماستهم الصليبية في حرب المسلمين، وهذه الحرب هي الحلقة الأخيرة من سلسلة الحروب الصليبية.

الكلمات المفتاحية: ابن شاهين، الغرب الإسلامي، الأندلس، المسلمون، الحروب الصليبية.

Ibn Shaheen's observations of the Crusader invasion and piracy of some cities of the Islamic West and Andalusia through the book "Al-Rawd al-Bassem fi Hawadith al-'Umar wa'l-Tarajim" 866-871 AH/ 1461-1466 AD.

By: Dr. Aisha Marshoud Hamid Al-Harbi

Associate Professor, Medieval History, Department of Social Sciences, College of Arts and Humanities, Taibah University.

Abstract:

Ibn Shaheen's journey is one of the first journeys that went from east to west. Its timing was remarkable due to the events that took place in the countries of the Islamic West, including the collapse and fall of states, and piracy, and the Crusader invasion and the wars of recovery (98-987AH/ 717-1492 AD) in Andalusia. There is no reference for these events within references to the history of the Islamic West except for these observations, and therefore they are considered true regarding those events taking place at the time, rather, a certain good for historians of the Islamic West.

Ibn Shaheen was an eyewitness to the events in the Islamic West. The papacy supported the occurrence and increase of these events because they believed that Andalusia is as their exclusive property. Accordingly, the strength of these Christian kingdoms increased and their racism extended. Pope Innocent III (594-612 AH/ 1198-1216 AD) had the upper hand in provoking the Crusade against Andalusia. He encouraged volunteers from Western Europe to take part in religious wars against Muslims. The French, the English, and the Germans participated in the Muslim war to express their crusader zeal. This war was the last in the series of Crusades.

Keywords: Ibn Shaheen, The Islamic West, Andalusia, Muslims, The Crusades.

مقدمة:

رغم اهتمام المؤرخين بالحروب الصليبية التي جرت في بلاد المشرق الإسلامي، إلا أنهم لم يذكروا ما كان يجري منها في بلاد الغرب الإسلامي والأندلس إلا القليل، وتكمن أهمية البحث في إبراز أهمية رحلة ابن شاهين التي تتحدث عن هذه حوادث، وهي الأولى في تناولها، والتي لم يأتِ ذكرها في المصادر العربية والمغربية، ولم يُذكر ما جرى منها إلا القليل، حيث رصدت أحداثًا صليبية وقرصنة لم يذكرها المؤرخون، وهذا مما دفعني للكتابة عن ذلك، وتتمثل أهداف الدراسة في رصد شيء من أحداث حركة الاسترداد النصرانية (الصليبية) في الغرب الإسلامي وبلاد الأندلس، والتعرف على الصراعات القائمة بين الممالك الإسلامية في الغرب الإسلامي، وبيان ردة فعل القوى الإسلامية على أحداث الغزو والقرصنة الصليبية.

وأصعب ما واجه الباحثة هي قلة المادة العلمية، خاصةً في رحلة ابن شاهين المليئة بالتصحيف والأخطاء اللغوية، والتي لم يصححها المحقق، مما زاد على الباحثة من صعوبة فوق صعوبة التحقق من معلومات الرحلة، فاتجهت الباحثة إلى دراسة الموضوع بموضوعية، تعتمد على رصد الحدث مع أسبابه ونتائجه، ومحاولةً إجلاء الغموض، وحتمت طبيعة الدراسة اتباع المنهج الوصفي التحليلي، فمبلغ العلم عند الباحثة أنها لم تجد أحدًا صنف دراسة علمية عن رحلة ابن شاهين، حيث ركزت أغلب الكتابات على الجانب الحضاري بين المسلمين والصليبيين في الأندلس.

وتم تقسيم الدراسة إلى تسعة عناصر، تسبقها مقدمة وتمهيد، وتتلوها خاتمة، بالإضافة إلى ثبت المصادر والمراجع.

المقدمة: اشتملت على التعريف بالموضوع، وأهميته، وأهدافه، ومنهج الدراسة، وتقسيمات الدراسة.

التمهيد: يتحدث عن أهمية رحلة ابن شاهين وهدفها، ومنهجه، وحياته.

- **الخروج من الإسكندرية.**
- **جذور الصراع النصراني ضد المسلمين في الأندلس بطابعه الصليبي.**
- **أسرى الصليبيين.**
- **هجوم الصليبيين على طرابلس والقبض على الأسرى وسجنهم.**

- **وقعة طريف.**
- **هجوم البرتغال على مدينة أصيلا.**
- **هجوم البرتغال على مدينة طنجة.**
- **أحوال الأندلس بعد تلك الحوادث.**
- **هجوم الصليبيين على طاحون خارج مالقة.**
- **الخاتمة:** تناولت أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

التمهيد:

تزامنت رحلة ابن شاهين مع ازدياد حروب الاسترداد Reconquista (ريكونكيستا)، أو الاستعادة النصرانية لأراضيهم من أيدي المسلمين في بلاد الأندلس، والصراعات القائمة بين ملوكها المسلمين مع بعضهم البعض، وقد لاحظ ابن شاهين مدى انهيار تلك الممالك في بلاد الغرب الإسلامي، وظهور الاضطرابات التي أدت في النهاية إلى سقوط الأندلس(١)، بالإضافة إلى الضعف الذي أصاب مملكة تلمسان(٢)، وحكامها بني زيان(٣).

---

(١) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٤٥١–٤٥٥.

(٢) تلمسان: مدينة قديمة وعظيمة، وكثيرة الآثار، وفي هذا دلالة على أنها كانت دارًا لمملكة سابقة، وكانت دار مملكة زناتة، وهي على سفح جبل تكثر به أشجار الجوز، ولها ماء ونهر؛ ولذا فهي خصبة وكثيرة الخيرات، ولها قرى وعمائر كثيرة، ولها خمسة أبواب، وفيها النصارى، ولهم فيها كنيسة معمورة، وهي تلي أغمات وفاس في كثرة الأموال والرفاهية، وهما مدينتان متجاورتان ومسورتان، وتشتهر تلمسان بالخيل الراشدية، وهي قاعدة المغرب الأوسط، وتكثر بها المزارع والفواكه. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١٣٥؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٥م، ج ٢، ص ٤٤.

(٣) بنو زيان: تنتمي تلك الدولة إلى قبيلة بني عبد الواد وهي إحدى بطون زناتة، وكانت ترتاد صحراء وجبال المغرب الأوسط، ولما فتح الموحدون تلك البلاد كان بنو عبد الواد خير عون لهم على ذلك، فحصلوا على ثقة الموحدين، كما منحوهم إقطاعات وفيرة في أحواز تلمسان، واستقروا فيها منذ ذلك الحين، وعندما سقطت دولة الموحدين، استقل يغمراسن بن زيان ملك بني عبد الواد بتلك المنطقة في عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م وأسس دولة بني عبد الواد التي تعرف بدولة بني زيان أو الزيانية نسبة إلى والده. أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص١٦٧–١٦٨.

ووثق ابن شاهين كل ذلك في رحلته التي تعتبر الأولى من نوعها من حيث الرحلة إلى بلاد الغرب الإسلامي، إذ تميزت بالدقة في الوصف والملاحظة والتقصي في تسجيل مشاهداته بصدق وأمانة، كما أنه حرص على التفرقة بين الخبر والمشاهدة عند تسجيل معلوماته. ولم يهدف ابن شاهين إلى وضع كتاب في تقويم البلدان في المقام الأول، بل أراد الوقوف على آخر تطورات الطب في بلاد المغرب؛ لميله لذلك العلم(٤)، وقد نقل لنا صورةً صادقةً وحيةً عن مجتمعات المدن الإسلامية في الغرب الإسلامي وبلاد الأندلس من ناحية عادات وتقاليد السكان، وأنظمتهم الاجتماعية، وأحوالهم النفسية خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وتعد تلك الفترة من أحرج وأدق الفترات التي مر بها الغرب الإسلامي؛ لكونها فترة الجهاد الإسلامي المقدس ضد حركة الاسترداد النصرانية.

منهج ابن شاهين:

اتبع ابن شاهين في كتابه "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" المنهج الذي سار عليه أسلافه من قبل، وهو المنهج الحولي الشهير في التاريخ الإسلامي، وهو الذي يجعل من العام الهجري وحدة زمنية تدور فيها الحوادث، وفي أثناء الرحلة يقوم المؤلف بمتابعة رصد الحوادث، ويسجلها بالتسلسل الزمني الذي يتوافق مع زمن وقوعها، وينتقل مع الحدث من يوم إلى يوم آخر، ومن شهر إلى الشهر الذي يليه حتى تنتهي أشهر السنة دون الاهتمام بربط الحوادث بعضها ببعض.

حياة المؤلف:

ولد عبد الباسط بن خليل بن شاهين الحنفي في الحادي عشر من شهر رجب سنة ٨٤٤هـ/ التاسع من شهر يونية ١٤٤٠م في مدينة مالطة(٥)، في الفترة التي كان والده نائبًا عليها، ولقد قضى طفولته وشبابه المبكر في التنقل مع والده في الولايات التي تولاها في

(٤) ابن شاهين، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٤م، ج١، ص ٢٨.

(٥) مالطة: جزيرة تلي جزيرة صقلية، ومنشأ فيها مراسي للسفن، وبها أشجار الزيتون والصنوبر والعرعر، وكان يسكنها الروم، ثم المسلمون بعد عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، وكان يدخلها جامعي العسل وصيادي الحوت وصناع السفن. الحميري، الروض المعطار، ص ٥٢٠؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٩٢-١٩٣.

الشام، وهذا الذي أتاح له الفرصة الكبيرة للقاء الكثير من العلماء في مدينة حلب[٦]، ودمشق[٧]، وطرابلس الشرق[٨]، وغيرهم، وتتلمذ على أيديهم وأخذ منهم مما كان له أثر كبيرٌ على ثقافته[٩].

كما زرع ذلك التنقل والترحال في نفسه منذ حداثة سنه الرغبة في السفر والرحلة، مما كان له أثرٌ بليغٌ على مستقبل حياته العلمية، هذا بجانب اهتمام والده المستمر به، حيث عكف على تربيته وتعليمه بنفسه، لقد قرأ عبد الباسط الكثير على أبيه، بالإضافة إلى أنه تعلم اللغة التركية على يديه أيضا[١٠].

وقَدِم عبد الباسط إلى القاهرة عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م – عندما كان في الحادية والعشرين من عمره – مع والده الذي تم استدعاؤه من دمشق ليكون مدبر السلطان[١١]

---

(٦) حلب: مدينة عظيمة في الشام، وهي مسورة بحجارة بيض، وفيها نهر عظيم، وبها مسجد جامع داخل المدينة، ولها سبعة أبواب، وبها قيسارية، ومعظم أسواقها مسقوفة، وبها قلعة شهيرة وحصينة. الحميري، الروض المعطار، ص١٩٦– ١٩٧؛ الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٨٣– ٢٨٥.

(٧) دمشق: نسبة إلى دماشق بن نمرود بن كنعان، ولها أربعة أبواب وسور من تراب، ولها نهر يحيط بها من كل النواحي حتى يلتقي بجهة الغوطة، وبها أسواق كثيرة ومسقوفة وأرضه مفروشة، وبني بها مسجد جامع في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في عام ٨٢هـ/٨٩٣م. الحميري، الروض المعطار، ص٢٧٣– ٢٣٩؛ الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٤٦٣ –٤٦٧.

(٨) طرابلس الشرق: مدينة في الشام، ولها سور صخري منيع، ويكثر بها أشجار الكروم والزيتون وقصب السكر ومختلف الغلات والفواكه، وبها ضياع ورساتيق، ولها صادرات وواردات كثيرة، ويحيط بها البحر من ثلاثة أوجه، وهي من معاقل الشام. الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٠؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٥.

(٩) محمد محمد عامر، "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، تأليف عبد الباسط بن خليل الحنفي (٨٤٤– ٩٢٠هـ)، دراسة وتحقيق، بحث منشور في حوليات كلية دار العلوم، القاهرة، العدد الثامن، ١٩٧٧/ ١٩٧٨م، ص ٦٢. وللأسف لم يقم الدكتور محمد محمد عامر بتحقيق هذه الرحلة، واكتفى بهذه الدراسة فقط.

(١٠) محمد محمد عامر، " الروض الباسم "، ص ٦٢.

(١١) مدبر السلطان، هو الذي يقوم بالنظر في الأمور ويدرك عواقبها، ويضاف إليها بعض الألفاظ حتى تكون ألقاب مركبة مثل "مدبر الجيش" و" مدبر أمور السلطنة". زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٤٨٠.

الأشرف أحمد بن إينال (٨٥٨-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦٠م)[١٢] ومستشارًا لدولته[١٣]، وفي حقيقة الأمر لقد انفتحت أمام عبد الباسط روافد ثقافية متنوعة في القاهرة، حيث دفع به والده إلى كبار علماء القاهرة، مثل إبراهيم بن محمد الأخضري، المعروف بأبي إسحاق المالكي، المتوفى في سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، وينسب إلى قبيلة الطولقي العربية التي تسكن بالقرب من شيخ الإسلام سكرة تونس، وهو المدرس بجامع الزيتونة[١٤]، ذكر ابن شاهين: أن هذا الشيخ كان يجلس في جامع الزيتونة ما بين الظهر والعصر أحيانًا، وما بين العصر إلى قرب المغرب أحيانًا أخرى، وقد حظى بمجالسته في هذه الأوقات، وسمع منه الكثير من فوائده، وتحقيقاته، حيث كان بمثابة الرأس في الفتوى، وقد استأنس بحديثه ومجالسته بجامع تونس كثيرًا، واستفاد كثيرًا من نوادره، كما تمكن من حضور دروسه في العربية، والمنطق، والفقه، وغيرها من الفنون، وعندما ورد سؤال من تونس عن ميراث مولود نصفه ثعبان، ونصفه إنسان، فأفتى بقضيته[١٥] وورد ذكرها عند ابن شاهين[١٦].

---

(١٢) الأشرف أحمد إينال: هو الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين الظاهري ثم الناصري، سلطان الديار المصرية والحجازية والشامية، قام بخلع نفسه في أثناء مرضه وتوفي عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، ج٢، ص٢٤٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي المستوفي بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين، نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ج٣، ص ٢٠٩- ٢١٢ ؛ السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت ١٩٩٢م، ج ٢، ص٣٢٨-٣٢٩.

(١٣) مشير الدولة: المستشار الناصح الذي يؤخذ رأيه، وكان من ألقاب الوزراء وأكابر الأمراء من مقدمي الألوف. زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ، ص٤٩٤.

(١٤) جامع الزيتونة: هو أول مسجد للصلاة في تونس، وسموه بجامع الزيتونة؛ بسبب وجود شجرة زيتون قريبة من صومعة لراهب عند نزول أوائل المسلمين في تونس عام ٧٩هـ/ ٦٩٨م، وعمل ولاة إفريقية على توسعة المسجد. محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، الجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٨٣- ٢٨٤.

(١٥) ابن شاهين، نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م، قسم٦، ج٢، ص١٥٢، ١٥٣؛ ابن شاهين، المجمع المفتن بالمعجم المعنون، تحقيق عبد الله محمد الكندري، دار البشائر، بيروت، ٢٠١١م، م١، ص ٧١٨-٧١٩، ترجمة رقم (١١١)؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص ١٩٦-١٩٧.

وأخذ من إسحاق بن إسماعيل بن إبراهيم بن شعيب بن محمد بن إدريس، أبي يعقوب القرمي القاهري الإمام التركي الحلبي الحنفي نجم الدين قاضي العسكر(١٧)، وشيخ الحنفية، وكان يحفظ "اللمحة البدرية"، و"نظم الجامع الصغير في مسائل الوفاق" وهي من نظم أبي نصر الفاهي، وقد قرأها المؤلف مرات عديدة، وذكر مناسبات مطالع أبوابها، وسمع من لفظها كتبًا عديدة، ولازمه فترة، وأخذ عنه كثيرًا، وكان له عليه مشيخة وقد توفي سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م(١٨).

وأبو القاسم ابنُ أبي بكر بن أبي الفضل الليثي، السمرقندي، الحنفي، والذي توجه له يوم الأحد الثامن عشر من شهر شوال ٨٨٧هـ/ الثامن من شهر ديسمبر ١٤٨٢م وهو في منزل الشرف الأنصاري بالقاهرة، فقابله هو ووالده، وناقشهما في أشياء، ووقع بينهما بحث طبي جيد. وقال ابن شاهين: لقد قُرِيء على صاحب الترجمة بعضٌ من أول حاشيته على "شرح الطوالع" وكذلك من آخره، وكذلك من حاشيته على "العضد"، وقد أجازني، ووالدي، والشهاب ابن تمر بأن قُرِيء عليه كافة تصانيفه ومروياته، وبعضًا من "صحيح البخاري" بقراءة نفسه على القطب الخضري، وغيرهم، وقد أكمل تعليمه على أيديهم، وأجازوه بالتدريس والإفتاء، وشُهد له بالتفوق والتقدم في تخصصه كالحديث والفقه والتاريخ وغيرها(١٩).

وبسبب شغف ابن شاهين بالعلم والتحصيل الواسع، فإنه تطلع لدراسة علم الطب دراسة متخصصة، عن طريق كبار الأطباء في عهده، ونظرًا لكون الغرب الإسلامي مشهورًا في تلك الفترة بالأطباء المتقدمين في دراسة الطب، فإنه عقد العزم على السفر إليها رغبة في

---

(١٦) ابن شاهين، الروض الباسم، ج١، ص ٣٥.

(١٧) قاضي العسكر: هو منصب رفيع المرتبة بين أهل العلم، ومعناها اللغوي: قاضي الجيش، ولصاحبها مجلس في الحضرة السلطانية في دار العدل الشريف، وفي عهد دولة المماليك شغل هذه الوظيفة جنديًا لأنها دولة عسكرية، وشمل عمله شؤن العسكر، وكان يفصل بالمسائل الخاصة بالعسكر كالشركة والقسمة والغنائم والمبيعات وغيرهم، ومثل قضاة العسكر في مصر المذاهب المالكي والحنفي والشافعي، ومثلوا في الشام الحنبلي والمالكي. زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ، ص ٤١٣– ٤١٤.

(١٨) ابن شاهين، نيل الأمل، قسم٧، ج٢، ص١٣١ – ١٣٢، ترجمة رقم (٢٩٨٥)؛ ابن شاهين، المجمع المفتن، ترجمة رقم (٦٨٥)؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٢٧٦.

(١٩) ابن شاهين، المجمع المفتن، ص ٢٠٢–٢٠٣، ترجمة رقم (٢٢٧).

تحقيق هدفه العلمي[٢٠]، وقام برحلة إليها لمدة خمس سنوات تمكن خلالها من زيارة مدن الغرب الشهيرة، وبعض المدن الأندلسية التي مازالت في أيدي المسلمين وتطور بها دراسة الطب[٢١].

أخذ ابن شاهين يستعد للسفر إلى بلاد الغرب الإسلامي، حيث بدأ بالرحيل من صعيد مصر إلى الإسكندرية حتى ينتظر يوم الرحلة، فسار قبل شهر شوال إلى الثغر، وبقى فيه إلى يوم الرحيل، وهو الثامن والعشرون من شهر شوال عام ٨٦٦هـ/ السادس من شهر أكتوبر ١٤٦١م[٢٢].

الخروج من الإسكندرية:

تأهب ابن شاهين لبدء رحلته إلى بلاد الغرب الإسلامي، وسجل لنا ما لم نجده بالمصادر التاريخية، حين احتشد المسافرون والتجار بميناء الإسكندرية استعدادًا للرحيل، ووردت إلى الميناء المراكب التي تعرف بالطرائد[٢٣]، ويقال لها أيضا الشواني[٢٤]، وكانت ثلاثة مراكب راسية وهي محملة بالبضاعة على الساحل حيث اجتمع التجار المغاربة وغيرهم؛ من أجل التفاوض على نقل البضاعة من الرصيف إلى المراكب والتي يقوم بها العتالون[٢٥]، ثم يتعاقدون مع ربان المراكب حتى يقوم بحمل البضائع الإسلامية إلى الغرب

---

(٢٠) زرهوني نور الدين، الطب والخدمات الطبية في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، ص ٥٣.

(٢١) السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص ٢٧.

(٢٢) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٢، ص ١٥٩.

(٢٣) الطرائد: جمع طريدة، تستعمل في البحر المتوسط، وتكون مفتوحة من المؤخرة ومجهزة لحمل الخيول بسبب الحرب، وتحمل حوالي ثمانين فرسًا، وتقرر النصوص المغربية والأندلسية ذلك بالإضافة إلى جواز استعمالها في حمل التجارة، وتستخدم سفن حربية عند الحاجة فينزلون وقت القتال حوائجهم في أجوافها. درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٨٩-٩١.

(٢٤) الشواني: هي سفينة حربية كبيرة، ومن أهم القطع التي يتكون منها أسطول الدول الإسلامية، ويتفرع منها أسماء لسفن حربية أخرى، وكل سفينة منها تحمل اسمًا يدل على وظيفتها، ومن ضمنها الحراقة، الجفنة، والغراب، والطريدة. درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص ٨٣.

(25) Charles-Emmanuel Dufourcq, L'espagne Catalane et le Maghreb, Universities de France, 1966, pp. 31, 35, 40.

للمتاجرة فيها مع أخذ الرهائن والضمانات الكافية[٢٦]، وذلك حتى لا يتهرب التجار عند المحاسبة، ثم يعود ابن شاهين لاستكمال الاستعداد للرحيل، فذكر أن الناس قد تجهزوا للسفر في المراكب، وكان هو من ضمن من تجهز، وانطلقت المراكب من مدينة الإسكندرية في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شعبان عام ٨٦٦هـ/ الخامس من شهر يونية ١٤٦٢م[٢٧].

جذور الصراع النصراني ضد المسلمين في الأندلس بطابعه الصليبي:

غلبت على النصارى الإسبان منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، الروح الصليبية ضد المسلمين في الأندلس، حيث رأى البابا باسكال الثاني Pascal II (٤٦٥-٤٧٧هـ/ ١٠٧٣-١٠٨٥م) أن شبه جزيرة أيبيريا تعتبر منطقة صالحة لإعلان الحروب الصليبية فيها ضد المسلمين؛ وذلك بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام وسيطرتهم على بيت المقدس ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وفي هذا دلالة على أن الحروب الصليبية في المشرق والغرب الإسلامي كلاهما تمت بتأييد ودعم من البابوية[٢٨]؛ ولذا سيطرت فكرة حروب الاسترداد في تلك الفترة على نصارى أوربا، والتي اعتبرتها بمثابة التوجه الثاني إلى بيت المقدس، وفي عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م راودت دييجو جيلميريث Diego Gilmerith كبير الأساقفة في إسبانيا (٤٦١-٥٣٤هـ/ ١٠٦٩-١١٤٠م) فكرة هزيمة المسلمين – أعداء النصارى – في شبه جزيرة أيبيريا، مما سيمهد الطريق إلى قبر السيد المسيح من خلال إسبانيا، وهو من أقصر السبل والأقل مشقة[٢٩] وفي هذا دلالة على مدى طموح البابوية في الوصول إلى بيت المقدس؛ لذا رأى نصارى الغرب أن الأندلس هي

---

(٢٦) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٢، ص١٦٠.

(٢٧) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٢، ص ١٦٠.

(٢٨) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦م، ج ١، ص ١٤٦.

(٢٩) توماش ماستناك، السلام الصليبي، ترجمة بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص١٦٩.

ملك سائغ لهم، واتجهت نزعتهم في محاربة المسلمين بها إلى القضاء المبرم عليهم واستئصال شأفتهم(٣٠).

وأسهم ظهور الجماعات الدينية على زيادة قوة الصراع، إذ أصدر كلٌّ من البابا إسكندر الثالث Alexander III (٥٥٤-٥٧٦هـ/ ١١٥٩-١١٨١م) والبابا أنوسنت الثالث Innocent III (٥٩٤-٦١٢هـ/ ١١٩٨-١٢١٦م) أوامرهم الخاصة بقيام أشهر منظمة دينية حربية قد عرفتها إسبانيا، وهي منظمة فرسان سانتياجو(٣١) Caballeros de Santiago فاشتد حماس النصارى وقويت رغبتهم في حرب المسلمين في بلاد الأندلس(٣٢)، وتنامت قوة هذا الصراع نتيجة لظهور الجماعات الدينية، وهي نظيرة للجماعات التي تكونت في المشرق مثل الداوية Templers(٣٣) والإسبتارية Hospitalers(٣٤)، وبالإضافة إلى

(٣٠) مجهول مؤرخ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٥.

(٣١) منظمة سانتياجو: هي جماعة فرسان شنت ياقب العسكرية الدينية ذات السيف، وأسسها مجموعة من قطاع الطرق في شمال غرب أيبيريا بمدينة جيليقية، فوعظهم الرهبان فتابوا، وعملوا في خدمة الصليب، وقد صدر بها مرسوم الإنشاء البابوي في الثالث من يوليو ١١٧٥م/ الخامس من ذي الحجة ٥٧٠هـ، وتبنت منذ نشأتها مبدأ القومية البرتغالية، كما اعتمدت في سياستها على ملوك البرتغال الذين منحوهم الأراضيَ العديدة، خاصةً في شمال نهر التاجه، وهي الأراضي التي استردها البرتغال من المسلمين، وكان لهذه الجماعة دور كبير في دعم القوات البرتغالية لطرد المسلمين من بلاد الأندلس، حيث شاركوا في موقعة العقاب ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م. سعد عبد الله البشري: "جماعات الفرسان الدينية النصرانية وحروبها مع المسلمين في الأندلس"، ***مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية***، السنة الخامسة، العدد السابع، جامعة أم القرى، ١٩٩٣م، ص ٢٠٨-٢٠٩؛ محمود سعيد عمران: الجماعات العسكرية الدينية في البرتغال في العصور الوسطى، بحث ألقيَ في ندوة الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (المؤرخ الإنسان: سيرة ومسيرة) كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، الخامس من شهر أبريل، ٢٠٠٨م،
http://www.msomran.com/p1.asp.

(٣٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥م، ج١، ص ٧٣.

(٣٣) جماعة فرسان الداوية: تأسست على يد فرنسي يسمى هيو بايان في عام ٥١٢هـ /١١١٨م، زمن الملك بلدوين الثاني بالقرب من هيكل سليمان؛ ولذا سُمّوا بفرسان المعبد، ثم أخذت مهمة حماية الحجاج النصارى؛ لأن الطرق ليست آمنة، بسبب حركات المقاومة الإسلامية، تمكن صلاح الدين من القضاء على

جماعة فرسان القنطرة Caballeros de la Qantara سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م[٣٥]، وأوكلت لهم مهمة حراسة أغلب الحصون التي أُفتتحت بالعهد الأخير، ثم جماعة فرسان قلعة رباح Order of Calatrav[٣٦] سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، وسميت بذلك لأنها اتخذت من القلعة

عدد كبير منهم في عام ٥٨٣هـ/١١٨١م، فرحلوا الى مدينة عكا، وبعد سقوطها سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، عادوا إلى أوربا. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٢م، ج٢، صـ ٣٤٥–٣٤٧؛ نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، مطبعة الجامعة، القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٦؛ خاشع المعاضيدي وآخرون، تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ط٢، بغداد، ١٩٨٦م، ص ٦٦.

(٣٤) جماعة فرسان الإسبتارية : نشأت في عام ٥٠٥هـ/ ١١١٢م، ومهمتهم العناية بالمرضى؛ ولذا أُطلق عليهم فرسان المستشفى، ثم قاموا بأعمال عسكرية خلال الحروب الصليبية، ويعود تأسيس هذه الفرقة إلى أحد مواطني أمالفي يُسمّى جيرارد .جوناثان رايلي سميث، الإستبارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، ترجمة: صبحي الجابي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩م، ص٦٥، ٦٦؛ سعيد عبد الله البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٩٩؛ مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية، الفرسان الإسبتارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٤م، ص ٧٣.

(٣٥) جماعة فرسان القنطرة: تأسست في عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م على يد سانت أماندوس في شلمنقة بغرض مواجهة أعداء النصارى، وسميت بجماعة القديس جوليان ديل؛ لأنهم بنوا حصنهم بجوار دير القديس جوليان ٥٥١هـ/ ١١٥٦م، ولما سيطر النصارى على قلعة القنطرة عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، انتقلوا إليها، ولذا تحول الاسم بعد ذلك إلى فرسان القنطرة. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة القاهرة،٢٠٠١م، ج٧، ص ٧٩؛ شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٧٩.

(٣٦) فرسان قلعة رباح: نشأت بناء على مرسوم البابا إسكندر الثالث في السادس والعشرين من ديسمبر عام ١١٦٤م/ السبت ٣صفر ٥٦٠هـ، وقامت هذه الجماعة على أسس رئيسية، وهي الطاعة والإحسان والفقر، مع الالتزام بتقديمهم المساعدة للقوات النصرانية في حروب الاسترداد ضد المسلمين في الأندلس، وشاركوا مع ألفونسو الثامن في موقعة الأرك ضد الموحدين في عام ٥٩١/ ١١٩٥م، وكان لهم زي خاص بهم، وهو الرداء الأبيض والقلنسوة، مع رسم صليب أحمر على ثيابهم. سعد عبد الله البشري: جماعات الفرسان الدينية النصرانية، ص ٢٠١–٢٠٢؛ محمود سعيد عمران: الجماعات العسكرية الدينية، http://www.msomran.com/p1.asp.

مركزًا لها([٣٧])، وقد أنشأها بعض الرهبان المتحمسين، حيث قاموا بحشد الجنود من النصارى الإسبان بدعم من البابا، وبدأ المتطوعون في الهجرة إلى بلاد الأندلس؛ من أجل الدفاع عن تلك القلعة الحصينة ضد النفوذ الإسلامي([٣٨]).

وسيطرت على ملوك إسبانيا في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري نزعة صليبية عندما شرعوا في سياسة التوسع والسيطرة على القواعد الإسلامية في الأندلس، وتوافدت الجموع الصليبية من كل ناحية، وأقاموا الصلوات العامة بالكنائس بغرض مناصرة الصليبيين، وارتدى الصليب العديد من المشاركين في تلك الحرب([٣٩])، وتوافد المتطوعون من غرب أوربا من أجل المشاركة في الحروب القائمة ضد المسلمين([٤٠])، وتجمعوا في مدينة طليطلة([٤١]) حتى ازدحمت المدينة بهم، إذ بلغ عدد الصليبيين المشاركين بها حوالي مائة ألف من المشاة، وعشرة آلاف فارس، وساروا مع ملك قشتالة([٤٢]) إلى قلعة رباح، والتي توجد بها حامية من الموحدين([٤٣])، فتمكنوا من الاستيلاء عليها، ثم استجابت كل من قشتالة

---

٣٧) قلعة رباح: من أعمال جيان، وهي مدينة حسنة، وتقع بين طليطلة وقرطبة، ولها حصن منيع على نهر آنه، وبنيت في عهد الدولة الأموية في خراب أوريط، وفي عام ٢٤١هـ/٨٥٥م أمر الإمام محمد بتحصينها مع الزيادة في مبانيها، وانتقل الناس إليها. الحميري، الروض المعطار، ص٢٧٣– ٢٣٩؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٢٣.

(٣٨) محمد عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص٧٩.

(٣٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥م، ج٢، ص ١٢٥٧.

(٤٠) عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج١، ص ٧٣–٧٤.

(٤١) طليطلة: مدينة قديمة وحصينة ولها سور، وقد بناها العماليق، وكانت مقر حكم الروم خلال دخول العرب، ولها نهر كبير بقنطرة، وفي طليطلة بساتين كثيرة، وفواكه وجنات يانعة، ودواليب مياه، وبها الكثير من البقر والغنم الذي يجهز ويرسل إلى سائر البلاد. الحميري، الروض المعطار، ص٣٩٣– ٣٩٤؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٩–٤٠.

(٤٢) قشتالة: من أعمال الأندلس، وقصبتها طليطلة، وسيطر الصليبيين على كامل الإقليم. الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨٣؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٥٢.

(٤٣) الموحدين: تنسب إلى قبيلة المصامدة، وهم من أكبر القبائل البربرية عددًا، وهي عصب الدولة الموحدية، وأسس ابن تومرت هذه الدولة بالمهدية، وقدم أصحابه العشرة ليبايعوه بالخلافة، ثم بعدهم جماعة

وأرجوان لتوجيه البابا الذي دعا فيه إلى ضرورة نبذ خلافاتهما والاتحاد بجيش واحد تحت قيادة ألفونسو الثامن Alfonso VIII (٥٥٣-٦١٠هـ/ ١١٥٨-١٢١٤م)؛ لذا حرص البابا أنوسنت الثالث على دعم ومباركة المتطوعين، بسبب عدم سكوته عن هزيمة ألفونسو الثامن في موقعة الأرك[٤٤] أمام الموحدين سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م[٤٥]، وأعلن الحرب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس، واجتمعت أعداد كبيرة تحت زعامة رئيس أساقفة أَرْبُونَةُ (ناربونة) Narbonne[٤٦] النصرانية[٤٧]، مما أدى إلى انتصار النصارى الإسبان على الموحدين بموقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م([٤٨])، وابتهج الإسبان بذلك الانتصار، واحتفلوا به؛ لأنهم

الخمسين، ثم تلاهم جماعة السبعين، وبذلك أسس الدولة الموحدية. عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ١٦٨-١٦٩.

(٤٤) موقعة الأرك: حصن منيع بالقرب من قلعة رباح، ووقعت على أرضها أحداث الموقعة الشهيرة بين ملك المغرب المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، والفونسو الثامن قشتالة، وذلك نظرًا لقيام ملك قشتالة بمهاجمة بلدان المسلمين في الشرق والغرب في عام ٥٩١هـ/١١٩٤م، وتقابل الجمعان بحصن الأرك، ولحقت الهزيمة بملك قشتالة. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٥٣، ٣٩٢، ٤٣٠؛ الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٤٥؛ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٣٥٨، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٩٩؛ المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنبير، عبد القادر زمامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢١٨-٢٢٠.

٤٥) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١م، ص ١٢٤؛ ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، ١٩٨٢م، ص ٢٢٣-٢٢٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٧.

(٤٦) أَرْبُونَةُ: بلد من أرض الأندلس وهي في طرف الثغر، بينها وبين قرطبة حوالي ألف ميل، ووقعت حاليًا بيد الصليبيين. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٤٠.

(٤٧) عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، ج١، ص ٧٣-٧٤.

(٤٨) موقعة العقاب: مكان بين قلعة رباح وجيان، ودارت على أرضه الموقعة الشهيرة بين ملك المغرب الملك الناصر أمير المؤمنين محمد بن المنصور يعقوب بن عبد المؤمن، وألفونسو الثامن ملك طليطلة

قد أخذوا بثأر هزيمتهم في موقعة الأرك، وأرسلوا الهدايا إلى البابا، واعتبروا يوم ١٥ صفر ٦٠٩هـ/ ١٦ يوليو ١٢١٢م عيدًا سنويا للانتصار الصليبي يحتفل به كل عام في مدينة طليطلة تحت مسمى "ظفر الصليب"(٤٩).

ولما وصل ابن شاهين إلى بلاد الأندلس فإنه شاهد عظم اتساع هوة الصراع بين المسلمين في غرناطة(٥٠) والنصارى الإسبان في الأندلس الذين تلقوا دعما من البابا بجانب الهيئات الدينية الأخرى خلال حصارهم لمدينة إشبيلية(٥١) عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م(٥٢)، ونادى البابا في روما بضرورة المشاركة في القيام بحروب صليبية ضد المسلمين في الأندلس، وضمن لهم الدعم المادي وجمع التبرعات؛ حتى تنجح هذه الحملة(٥٣)، وتقاطرت الجيوش

وقشتالة في عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، وحالف النصر في البداية الملك الناصر، فاستغاث ألفونسو بالنصارى، وطلب منهم المدد، فاستجابوا له وتوافدوا عليه من كل مكان؛ ولذا انهزم الملك الناصر هزيمة ساحقة. المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٣٩٩، ٤٠١، ٤١٥؛ المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين، ص ٢٦٢؛ ابن الخطيب، تاريخ إسبانية الإسلامية، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م، ص ٣٣١؛ الحميري، الروض المعطار، ص٤١٦.

(٤٩) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦م، ج ٢، ص ١٢٣.

(٥٠) غرناطة: هي مدينة في الأندلس، وعليها سور، وبها عدة بساتين، ولها عدة أرباض، أشهرها ربض البيازين في شمال المدينة وهو من أكثر الأرباض تكدسًا بالسكان، وربض نجد في جنوب ربض الفخارين، ويزرع بها أنواع مختلفة من الفاكهة. الحميري، الروض المعطار، ص٤٥– ٤٦؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ١٩٥.

(٥١) إشبيلية: مدينة قديمة بناها يوليوس قيصر، وهي كبيرة وعامرة وأهلها أغنياء ومعظم تجارتها زيت الزيتون، ويصدر إلى بلاد المشرق والمغرب، ولها ثمانية آلاف قرية عامرة. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٧٩–٢٨٠؛ الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٩٥.

(٥٢) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص١١١؛ المبروك غنيه الأسطى، حركات الجهاد المشترك على مدى قرن في ظل الصلات بين بني الأحمر بغرناطة وبني مرين بفاس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٢٤م، ص٤٣.

(٥٣) المبروك غنيه الأسطى، حركات الجهاد، ص ٢٢٢.

الصليبية إلى بلاد الأندلس وبالذات على قشتالة التي كانت بقيادة ألفونسو الحادي عشر[٥٤] Alfonso XI (٧٢٥-٧٥١هـ/ ١٣٢٥-١٣٥٠م) والذي كان يحمل راية البابا، وفي هذا دلالة على أن المعركة الصليبية كانت ضد بني مرين[٥٥]، وانتهج الصليبيون سياسة القرصنة حيث ذكر ابن شاهين أنه اشتد عبث الصليبيين بكثرة في البحر المتوسط، وسطوا على بعض المراكب التجارية للمسلمين في البحر وفي سواحل بعض البلاد[٥٦].

وعندما رجع لويس التاسع Louis IX (٦٢٣-٦٦٨هـ/ ١٢٢٦-١٢٧٠م) من الحروب الصليبية في بلاد الشام (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) منهزمًا توجه بالحملة الصليبية الثامنة إلى تونس (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م) ومات هناك؛ ولذلك أخذت الحروب الصليبية اتجاها مغايرًا، حيث لجأت البابوية إلى سلاح التنصير نتيجة للضعف الذي انتابها أمام السلطة العلمانية فلم تعد قادرة على حشد الجيوش كما كان من قبل، حيث اعتقد تحت تأثير ريمون مارتان، أنه من الأمر اليسير تنصير السلطان الحفصي المستنصر (٦٤٧-٦٧٥هـ/ ١٢٤٩-١٢٧٦م) وهذا من التفكير الساذج، بالإضافة إلى ما سبق أن قام به شاب من أبناء أخي الأمير زكريا الحفصي (٦٢٥-٦٤٦هـ/ ١٢٢٨-١٢٤٩م) حيث أبدى رغبته في التحول إلى النصرانية عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م والتعميد عند البابا جريجوري التاسع Gregory IX (٦٢٤-٦٣٨هـ/ ١٢٢٧-١٢٤١م)[٥٧]، لكن ألفونسو ملك قشتالة قام ببناء أسطولٍ من خمسين سفينة، من البينونية نحو أربعون بيونيا – نوع من السفن- ومن الأغربة[٥٨]، وقد

(٥٤) ألفونسو الحادي عشر: هو ابن فرناندو الرابع، واستبد به واستفحل أمره في المسلمين بأن يضم جزيرة الأندلس إلى حوزته، فشن عليها الكثير من الغارات، وصادف أيام ملكه اختلافا عظيما بين المسلمين، مما أدى إلى ضعفهم، وطلب المعونة من الغرب الأوربي بقيادة البابا فبذلوا للفونسو ما يحتاجه من المال والجند. ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٧٦- ٧٧.

(٥٥) المبروك غنيه الأسطى، حركات الجهاد، ص ٢٢٣.

(٥٦) ابن شاهين، الروض الباسم، ج١، ص ١٦٣.

(٥٧) روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص٤٩٣، ٤٩٦.

(٥٨) الأغربة: مفردها غراب، وهي مراكب حربية شديدة البأس، واستخدمت في العصور الوسطى للغزو البحري، وتعد من المراكب القديمة في البحر المتوسط، وسميت أغربة لأنها سوداء اللون مثل الغراب،

استغل الفترة التي قام فيها المماليك بطرد الصليبيين من معاقلهم في بلاد الشام، فشرع الفونسو في تجديد هذه الحروب عن طريق مهاجمة السواحل الشامية، حيث ذكر ابن شاهين بأنه قد تواترت إليهم الأخبار من طرابلس بأن أهل رودس[٥٩] قد تأهبوا للحرب – لأنها كانت خاضعة في تلك الفترة لهيئة الفرسان الإسبتارية فظلت هجماتهم مستمرة على المسلمين؛ ولذا خلت كثيرٌ من ضياع طرابلس، وتركوا السواحل، وتوجهوا نحو الجبال[٦٠].

ووصلت الأخبار إلى ابن شاهين بوصول مراكب ألفونسو إلى ثغر بيروت[٦١]، ووجد الصليبيون في الميناء مركبًا للمسلمين محملًا بالبضائع وشرعوا في قتال المسلمين، وأَسروا من بالمركب، وكانوا نحو أربعين رجلًا وفوق ذلك باعوا من أسروا، وعندها أمر السلطان المملوكي الملك الظاهر أبو سعيد جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) بسرعة تجهيز أجناد الحلقة[٦٢]؛ استعدادًا لحرب ألفونسو[٦٣].

وتطلى بالزفت، ومقدمها على هيئة منقار الغراب، وتسير بالمجاديف، ويجر الغراب الصغير عشرة مجاديف، وأما الكبير فيجره مائة وثمانون مجدافا. درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ١٠٤.

(٥٩) رُودس: هي الجزيرة بلغة الإغريق، وهي من ثغور بلاد الشام، وتقع في البحر المتوسط، ويقدر حجمها بعشرين ميلًا وبينها وبين ساحل الإسكندرية مقدار أربعة أيام. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٧٨.

(٦٠) ابن شاهين، الروض الباسم، ج١، ص ٢٠٢.

(٦١) بيروت: مدينة حصينة تقع على ساحل الشام، ولها سور حجري، وتنمو بها أشجار الصنوبر بكثرة، وقريبا منها جبل يوجد به معدن الحديد الذي يستخرج ثم يحمل إلى الشام، والآبار هي مورد شرب أهلها، وبينها وبين دمشق يومان. الحميري، الروض المعطار، ص ١٢٢، ١٢٣؛ الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٢٥.

(٦٢) أجناد الحلقة: من أحد العناصر التي تتكون منها الجيوش النظامية، إلى جانب فئة مماليك الأمراء والمماليك السلطانية، وتتألف فئة أجناد الحلقة من الجند المحترفة من بقايا مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، ويُمنحون الإقطاعات، ويتم تنظيمهم في وحدات، وتتكون كل وحدة من أربعين شخصًا برئاسة مقدم يحكمهم في أثناء الحرب. زين العابدين نجم، معجم الألفاظ، ص ١٨.

(٦٣) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ١، ص ٢٠٢؛ نيل الأمل، قسم ٥، ج ٢، ص ١٣٨؛ ابن حجر، أنباء الغمر بأنباء العُمر، تحقيق حسن حبشي، وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث الإسلامية، القاهرة، ٢٠١١م، ج٤، ص ١٦٣.

وتتواصل الأخبار إلى ابن شاهين فيذكر أنه لم يقف الفونسو عند هذا الحد، بل شن هجومًا على قلعة سهل الطينة[٦٤]، ثم هاجمت جموعٌ من الصليبيين ساحل الطينة بمراكب عديدة، وعثروا على اثنين من المراكب التجارية للمسلمين فاستحوذوا عليهما وما بهما من تجارة كما أسروا أهلهما، ثم ساروا للساحل فأحرقوا كل ما وجدوه في المراكب ونهبوا كل ما فيها[٦٥]. وما ذكر سابقًا يؤكد أن قوات النصارى الإسبان كانوا ينطلقون في البحر المتوسط بدون رادع نتيجة ضعف السلطة المملوكية وباقي السلطات الإسلامية القاطنة على ساحل البحر المتوسط.

أسرى الصليبيين:

لقد رصد ابن شاهين مشاهداته عما يقوم به الصليبيين من أعمال القرصنة والحملات، وموقفِ السلاطين المسلمين من ذلك، ونجد العديد من الحوادث، ومنها ما حدث في يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة عام ٨٦٥هـ/ الأربعاء الثاني عشر من شهر أكتوبر ١٤٦٠م حيث قدم اثنان من مراكب الصليبيين إلى مرسى تونس، ومعهم العديد من الأسرى للفدية، والتزم أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز (٧٦٧-٧٧٤هـ/ ١٣٦٥-١٣٧٢م) بفداء كل الأسرى من بيت المال طوال حياته، ذكر القس إنسلم تُرميدا المعروف بعبد الله الترجمان الأندلسي أنه شاهد هذا الأمير عدة مرات وهو يوصي كل التجار النصارى بكل أجناسهم أن يأتوا إليه بكل ما يقدرون عليه من الأسرى المسلمين، ومنح لكل شاب منهم ما بين ستين إلى سبعين دينارًا، ولكل كهل من أربعين إلى خمسين دينارًا، وهو الذي يترجم بينه وبين النصارى الإسبان في ذلك[٦٦]، وحينما أحضر الصليبيون الأسرى قدم ابن شاهين بغرض فداء أو فك أسير أو شرائه؛ ولهذا سار إلى المرسى، ونزل بقارب[٦٧] من

---

(٦٤) قلعة سهل الطينة: كان مركزا للحراسة العسكرية، ويقع في شرقي بورسعيد الحالية. نعوم شقير، تاريخ سينا، القاهرة سلسلة ذاكرة الكتابة رقم (١٥٧)، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ١٩٧.

(٦٥) ابن شاهين، الروض الباسم، ج١، ص ٢٠٣؛ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٤، ص ١٦٣.

(٦٦) القس إنسلم تُرميدا الشهير بعبد الله الترجمان الأندلسي، تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق محمود علي حماية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٥٧.

(٦٧) قارب: نوع من السفن البحرية الصغيرة، ومن توابع الأسطول، وهي وسيلة خفيفة تستخدم لقضاء حوائج البحريين. درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص٥٩.

الساحل للمراكب العائمة بالبحر بواسطة قوارب صغيرة؛ وذلك لأن الميناء غير صالح لرسو السفن الكبيرة(٦٨) حتى يشاهد ما تحمله تلك المراكب من أسرى، ذكر ابن شاهين أنه بينما كان يتفرج على الأسرى وجد أسيرًا تركي الجنسية وهو من بلاد حاج ترجان ومن دست قبجاق التتر، وغير عارف باللغة العربية، ويجيد اللغة التركية واللاتينية أيضا، وهو الأسير الوحيد المتبقي في المركب، فسأله بالتركية عن اسمه فأجابه، ثم أردف قائلًا: بأنه من أسرى المسلمين(٦٩)، ولما نزل ابن شاهين إلى القارب الراسي في البحر ثم وصل إلى المرسى، وهناك اجتمع بصاحبه نزيل تونس وعظيم التجار الخواجة التاجر أبي القاسم البينونى الغرناطي الأندلسي، وتحدث معه في أمر هذا الأسير، واشتراه بقيمة أربعين دينارًا من ماله نظرًا لكبر سنه، ثم حمله من المركب على متن قارب إلى البر، فلازمه التركي واستمر في خدمته لسنوات عديدة(٧٠).

هجوم الصليبيين على طرابلس والقبض على الأسرى وسجنهم:

تكرر هجوم الصليبيين على طرابلس، واستخدموا العديد من الحيل، مثل تنكرهم بزي تجار، واستولوا على شواطئ المدينة، وذكر الزركشي أنهم قد هاجموا المدينة في الصباح إذ نصبوا السلالم ثم صعدوا الأسوار ونجحوا في الاستيلاء على المدينة، ولاذ حاكمها بالفرار، وأسر الصليبيون أهل البلاد، وأقاموا فيها أربعة أشهر(٧١).

ونهبوا كل ما فيها من خيرات إلى بلادهم جنوة، وتركوا مدينة طرابلس وهي خالية خاوية(٧٢)، وهذا العمل يتنافى مع العديد من الاتفاقات والمعاهدات القائمة والتي تؤكد على أهمية الاحترام المتبادل بين الدولتين(٧٣).

---

(٦٨) هاينرش فرايهرفون مالتسان، رحلة حجي إلى مكة، ترجمة ريهام نبيل سالم، مراجعة عبد الله أبو هشه، دار الحكمة، لندن، ٢٠١٨م، ص ١٩٥–١٦٠.

(٦٩) مبلغ تحرير الأسير المسلم ٢٥ دينار.

Dufourcq , L'espagne Catalane et le Maghreb, Universitaires de France, 1966, p.27.

(٧٠) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٢، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٧١) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦م، ص٩٤.

(٧٢) الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ٩٤.

وعن أوضاع أسرى الصليبيين في طرابلس فقد انفرد ابن شاهين بالحادثة، وفي حقيقة الأمر إن المصادر المغربية تفتقر إلى المعلومات الدقيقة الخاصة بوضعية الأسرى؛ لذلك ذكر ابن شاهين أنه في اليوم الثامن والعشرين من شهر شوال عام ٨٦٦هـ/ الثالث من شهر أغسطس عام ١٤٦٢م قام الأسرى المسجونون بالاتفاق على حفر المطمورة – السجن – ليلًا، ونجحوا في تسلق سور البلد، وقد جهزوا قاربًا للهرب، فتمكن خمسة منهم من الخروج وركبوا القارب هاربين، وتم القبض على البقية والتنكيل بهم(٧٤).

وروى روبار برنشفيك أخبارًا عن هذا الحادث ووصفها بأنها مغامرة قامت على يد بعض أسرى الصليبيين الذين هربوا من المطمورة التي كانوا مسجونين بها في طرابلس، لكن تم القبض عليهم مرة ثانية، ماعدا خمسة استطاعوا الفرار في زورق صغير(٧٥)، وواصل روبار برنشفيك روايته عن الأسرى بأنهم كانوا مكبلين، وعند السماح لهم بالتجول بالمدينة أو في البادية، كانوا يجرون الأغلال الثقيلة في أرجلهم مدة طويلة(٧٦)، واستمر في عرض أوضاع الأسرى في تونس وأنهم يعاملون معاملة الكلاب(٧٧).

وإزاء ما سبق، نجد خلطا في وصف روبار بين الرقيق والأسرى حينما قال بأنهم يجرون أغلالهم مدة طويلة، وهذا يتنافى مع الحقيقة، فكيف تكون الأغلال موجودة وقد تمكنوا من تسلق سور البلد ليلًا والنزول، ثم توجهوا للبحر، ووجدوا زورقا صغيرا في انتظارهم(٧٨)! ولأن ابن شاهين كان شاهد عيان ولم يذكر أو يرَ الأغلال في أرجل أسرى الصليبيين، ولم يتمكن أحد من اللحاق بهم؛ بسبب سرعتهم في الهروب، بجانب سجنهم في المطمورة وحفرهم جزءًا منها، ثم هربوا، وفي ذلك دلالة على أنهم غير مكبلين، بالإضافة إلى

---

(٦٠) صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، ٢٠٠٦م، ص ٣١٠-٣١١.

Michele Amari, Diploma Arabia, R. Archive Florentine, Firenze, 1863, p. 56.

(٧٤) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٢، ص ٢٣١.

(٧٥) روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية، ج ١، ص ٤٧٩.

(٧٦) روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية، ج١، ص . ٤٧٩.

(٧٧) روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية، ج١، ص ٤٧٩.

(٧٨) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٢، ص ٢٣١.

أن الصليبيين الذين أسلموا أو استسلموا قد شكلوا عصب الدولة الحفصية، وكان أغلب الرماة نصارى أسلموا، والحرس السري كان من النصارى الإسبان المقيمين بربضهم الخاص في تونس(٧٩) فكيف هذه المعاملة حسبما أوردها روبار برنشيفك، ولعله أنه أرد أن يشوه صورة المسلمين في معاملة أسراهم.

ولم نجد في المصادر المغربية أيضا، خاصةً المصادر الحفصية ما رواه ابن شاهين عن حصار الصليبيين لميناء وهران(٨٠) وقيامهم بتخريب الميناء وحصاره؛ لذا قام سكان وهران بغلق الأبواب، وصاحوا من ذلك الغزو، ثم صعد المحاربون على الأسوار لقتال الصليبيين، وأرسل الله سبحانه – بمنتصف الليل – رياحًا عاتية أدت إلى سرعة مغادرة الصليبيين ببعض مراكبهم؛ خشيةً من الغرق، تاركين العديد من المراكب في ساحل وهران للمسلمين؛ وذلك نتيجة لعجلتهم وارتباكهم، فقطع المسلمون حبال المراكب وتركوها، فقذفها التيار إلى البحر، وغدت لأهل وهران، ولم يجد المسلمون أي أثر للصليبيين إلا بعض العسكر الجرحى، وقبضوا عليهم، واستخرجوا المرسى العائمة والتي قدرت قيمتها بحوالي خمسمائة دينار(٨١).

ومر ابن شاهين على تلمسان وهو في طريقه إلى الأندلس عام ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤م فاسترعى انتباهه انتشار عمليات القرصنة من قبل الصليبيين؛ لأنهم قدموا بمراكبهم بغرض الإغارة على المسلمين وخطفهم وهم على ساحل هنين(٨٢)، ولما تنبه المسلمون لذلك هربت

---

(٧٩) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ج٢، ص ٨٠، ٨١.

(٨٠) وهران: تقع على ساحل البحر المتوسط، وبنيت على يد الأندلسيين البحريين، وسكنها البربر، وسرعان ما اشتعلت الحرب بينهم فأضرموا النار في وهران واحترقت، وظلت سنين خربة، ثم عاد الناس إليها وعمروها مرة أخرى فعادت في أحسن حال، وبها البساتين والثمار الكثيرة، ولها ميناء كبير للسفن ويفد إليه التجار من أنحاء البلاد. الحميري، الروض المعطار، ص٦١٢؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٨١) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٨٢) هنين: ليس هنى كما عند ابن شاهين، وهي تصحيف، والصحيح هنين، وهي مدينة قديمة وصغيرة شيدها الأفارقة، وفيها ميناء صغير ومحروس ببرجين، من جهتين، ومحاطة بأسوار عالية وقوية، خاصةً

مجموعة من الصليبيين بمراكبهم، وأسر الباقي منهم، وعندما أحضروا إلى حاكم تلمسان وجه بتعليق ستة من الأسرى من رقابهم على أبواب مدينة تلمسان حتى ماتوا، بينما أبقى خمسة منهم على قيد الحياة؛ لأنهم من أصحاب الثراء، فافتدوا أنفسهم بالمال(٨٣)، وهذه طبيعة المرحلة التاريخية حيث كان الحكام المسلمون في حالة ضعف؛ فنشطت القرصنة ضدهم.

وقعة طريف(٨٤):

تعتبر طريف هي المدخل الاستراتيجي لبلاد الأندلس ومفتاحها؛ ولهذا مثلت أهمية للقوى الإسلامية والصليبية، وفي سبيل محافظة القوى الإسلامية عليها وحمايتها من محاولات سيطرة الصليبيين عليها قاموا بالعديد من المعارك، ومن أشهر المعارك التي دارت حولها في عهد السلطان أبي الحسن المريني (٧٣١-٧٤٩هـ/ ١٣٣١-١٣٤٨م)(٨٥)، وذلك في أوائل سنة ٧٤١هـ/ أبريل ١٣٤٠م، عندما أحرز العديد من الانتصارات على النصارى

من جهة البحر، وتأتي لهذا الميناء كل عام سفن شراعية من مدينة البندقية، وتحقق أرباحًا كبيرة مع تجار تلمسان، ويعمل أغلب سكان هنين في القطن والمنسوجات، ومنازلهم رفيعة الزخرفة والجمال، وفي كل بيت بئر ماء عذب، وبُلطت أرضها بالزليج الملون، وكسيت جدرانها بالفسيفساء الفنية، وتنتج هنين كميات هائلة من الثمار مثل المشمش والتفاح والكرز والتين والزيتون، وأقاموا الطواحين على النهر. حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج٢، ص ١٥-١٦.

(٨٣) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، ص ٢٣؛ ابن شاهين، نيل الأمل، قسم ٦، ج ٢، ص ١٩٨.

(٨٤) طريف: هي أول موقع في شبه جزيرة إيبريا- الأندلس- نزل به العرب الفاتحون، وتنسب إلى القائد المسلم طريف، وهو أول قائد للإسلام، وطرق بلاد الأندلس في سنة ٩١هـ/ ٧٠٩ م واصطحب معه مائة فارس، وأربعمائة رجل في حملة استطلاعية، وتقع على لسان بمضيق جبل طارق من الجهة الجنوبية الغربية المواجهة للجزيرة الخضراء، لأنهما يشكلا مع جبل طارق منافذ رئيسية هامة للوصول بين العدوتين الأندلس والمغرب. المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص ١٦٠.

(٨٥) أبو الحسن المريني: هو عثمان ابن أمير المؤمنين يعقوب ابن الأمير عبد الحق المريني، بويع بالحكم بعد أبيه في يوم الجمعة من عام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م، وتدخل في شئون الدولتين الحفصية والتلمسانية، وقام بالعديد من الغزوات لدعم دولة بني الأحمر في الأندلس حتى هزم في موقعة طريف، فعاد إلى فاس، ثم انتزع منه الحكم ولده أبو عنان. ابن الأحمر، النفحة النسرينية، حققه وعلق عليه عدنان آل طعمة، دار سعد الدين، دمشق، ١٩٩٢م، ص٤٧.

في الأندلس، وأراد مواصلة انتصاراته، فشرع بتجهيز الأساطيل، وأخذ في إجازة المقاتلين، ونزل في الجزيرة الخضراء(٨٦)، ولما علم ألفونسو الحادي عشر بمقدم هذا الجيش الضخم في عناده من بني مرين(٨٧)، استغاث بالبابا من أجل تقديم الدعم المادي له، وجمع التبرعات لضمان نجاح هذه الحملة، فاستجاب البابا لطلبه، ووجه دعوة لكل النصارى في أنحاء أوربا للمشاركة في الحرب دعمًا للنصارى الإسبان(٨٨).

لبى الكثيرون دعوة البابا، وتوافدت الجموع الصليبية من كل مناطق الغرب الأوربي، وبالذات من إنجلترا وفرنسا، وشاركت أراجون(٨٩) بثلاثَ عشرةَ سفينةً، وشاركت البرتغال بخمس عشرة سفينة، وقطلونية بعشرين سفينة، كما شاركت جنوة بخمس عشرة سفينة من

(٨٦) الجزيرة الخضراء: تعرف بجزيرة أم حكيم، وهي جارية للفاتح طارق بن زياد مولى القائد موسى بن نصير، وكانت مع طارق ثم تركها في الجزيرة فنسبت إليها، وأقيمت المدينة على المرسى، وعلى ربوة تشرف على البحر، ويتصل سورها بالبحر، وفي شرقها خندق وفي غربها أنهار عذبة وأشجار تين، وهي منيعة وحصينة وسورها مبني من الحجارة، وفي المدينة جامع حسن البناء في وسط المدينة، وأسواقها متصلة تمتد من الجامع حتى شاطئ البحر، وفيها بساتين وفيرة، وبها ميناء تدخل إليه السفن، وهي من أوائل المدن التي افتتحها المسلمين. الحميري، الروض المعطار، ص٢٢٣– ٢٢٤؛ الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٣٦.

(٨٧) بنو مرين: تنسب لفخذ قوي من قبيلة زناتة البربرية، وهي من القبائل الرحل التي تقطن في الصحراء، وينتقلون ما بين سجلماسة وملوية في المغرب الأوسط، وفي عام٦١٠هـ/ ١٢١٣م دخلوا إلى المغرب الأقصى بعد هزيمة الموحدين بمعركة العقاب، بدأ بنو مرين حياتهم السياسية بصراعات طويلة مع الموحدين، واستمروا في ذلك ثمانية وخمسين سنة، وتمكنوا من القضاء على الموحدين ودخلوا عاصمتهم مراكش في عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، ومن هنا يبتدئ عصر دولة بني مرين، واستمروا حتى قتل عبد الحق المريني على يد أهل فاس في عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م، م٧، ج ١٣، ص٣٤٣؛ الناصري، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج٣، ص٣–٤؛ محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، ١٩٨٥م، ص٨.

(٨٨) المبروك غنيه الأسطى، حركات الجهاد، ص٢٢٢.

(٨٩) أراجون: مدينة في الأندلس من ناحية جيان. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٦؛ الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٤.

أسطولها؛ بغرض نقل الصليبيين نظير أجرة تقوم بدفعها قشتالة لها، وتقدر بنحو ثمانمائة فلورين ذهبي(٩٠) شهريا مقابل كل مركب خلال الحصار(٩١).

في نهاية شهر ربيع الثاني ٧٤١هـ/ نهاية شهر أكتوبر ١٣٤٠م تمكن عدد من جيش النصارى الإسبان بلغ عددهم نحو أربعة آلاف راجل، وألف فارس، من دخول مدينة طريف في الليل، واختفوا داخل المدينة حتى اشتد القتال ولاحت بوادر النصر للمسلمين، وظهر فجأة الجيش الكمين الذي تسلل تحت جنح الظلام، وهجموا على مؤخرة الجيش الإسلامي، فحدث الاضطراب بين صفوفه، وأصبح الجيش الإسلامي بين فكي كماشة، وهذا مما ساعد جيش النصارى الإسبان على الانتصار في خطته، فنزلت الكارثة بالمسلمين(٩٢).

وتمكن أبو الحسن من النجاة بأعجوبة شديدة من هذه المعركة، حيث تمكن من المسير ليلًا إلى الجزيرة الخضراء مع بقايا فلول جيشه المنهزم، ومنها اتجه إلى جبل طارق، ونزل في سبتة(٩٣)، ثم خرج إلى فاس(٩٤)، ورجع القائد يوسف الأول بن الأحمر، إلى

---

(٩٠) فلورين: هي عملة ذهبية قد أصدرتها فلورنسا في عام٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، ووزنها تقريبا ٣,٥٣ جرامًا من الذهب الخالص، وهي بذلك تقلد البندقية التي قد أصدرت عملة لها بنفس السنة. زين العابدين نجم، معجم الألفاظ، ص ٤٠٦.

(٩١) المبروك غنيه الأسطى، حركات الجهاد، ص ٢٢٣.

(٩٢) الناصري، الاستقصا، ج٣، ص ١٣٧.

(٩٣) سبتة: بلدة مشهورة وقديمة، وبها آثار تعود للعصر الروماني، وهي من قواعد بلاد المغرب، ولها مرسى جيد على البحر، وهي تشبه المهدية التي بإفريقية في حصانتها، وتقع على بحر الزقاق والمحيط بها من الجهتين الشرقية والجنوبية، ولا يوجد لها طريق إلا من الغرب، وجامعها كان في الأصل كنيسة، وعليها سور من جهات ثلاث ما عدا البحر، وتوجد بها بكثرة مزارع قصب السكر والأترنج، ويصدر منه الكثير من البلاد، وبها تجار أغنياء يتاجرون مع الهند وبلدان أخرى. الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ١٨٢؛ ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢ م، ص ١٣٩؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٠٣.

(٩٤) فاس: شيدها إدريس بن عبد الله والد إدريس الثاني في سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، تقع على الضفة اليمنى لنهر فاس، وسميت بمدينة فاس، ولكنه توفي قبل أن يطورها، وفي سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٧م قام ابنه ببناء مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر فاس، وفي العصر المريني أراد السلطان أبو يعقوب يوسف المريني في عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م أن يؤسس مدينة لحاشيته وأهل خدمته وهي مدينة فاس الجديدة. الجزنائي، جني زهرة

عاصمته غرناطة، مترقبًا لردة فعل قشتالة على المسلمين بعد انتصارهم في هذه الموقعة[٩٥]، هذا بجانب الفساد الذي سيطر على نفوس سادة غرناطة[٩٦].

وذكر ابن شاهين من ضمن أعمال قرصنة الصليبيين المرعبة في شواطئ بلاد المغرب؛ أنه لما دخل المركب الذي يحمله عند العصر ساحل البر قريبًا من بجاية، وعند نزولهم من المركب التقوا بطائفة من البرابرة القاطنين في الجبال، فلما رأوهم ولوا هاربين عنهم؛ لأنهم ظنوا أن هذا المركب للصليبيين القراصنة، وأنهم قاموا بتغيير هيئاتهم من باب الحيلة لخطف المسلمين، ولما دخلوا بجاية وجدوا خبرًا عند البرابرة بأن هناك مركبًا من مراكب الصليبيين قد ظهر فيها أهلها بزي الصليبيين حيلة لخطف المسلمين، وظن أهل بجاية أننا نحن الصليبيين، وما أن اشتدت الرياح حتى خرج ابن شاهين ومن معه من بجاية[٩٧].

وتعاقبت الهزائم على المسلمين خلال الفتنة التي قامت بين أمير المسلمين المستعين بالله[٩٨] وولده سعد بن أبي عبد الله محمد[٩٩] المعروف بابن الأحمر[١٠٠] الذي نجح في

الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٧م، ص ١٧؛ ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، ١٩٨٢م، ص ٤٠٤؛ مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ص ٢٩؛ إسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١م، ص ٢٩.

(٩٥) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٢٨.

(٩٦) مؤلف مجهول، أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٥١.

(٩٧) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص ١٩٠.

(٩٨) المستعين بالله: هو سعد بن محمد بن يوسف بن إسماعيل الخزرجي وهو أرجواني الأصل صاحب غرناطة، وأراجونة هي بلدة مشهورة في الأندلس، وجرت له العديد من الخطوب والحروب مع أقاربه، ومع أعدائه الصليبيين المجاورين له، مثل صاحب البرتغال، وصاحب قشتالة، وكان في حروب دائمة معهم، وطالت مدة حكمه حتى ثار عليه ولده بتخطيط من بني السراج وغيرهم. ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣ ص ٧٦.

(٩٩) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص ٧٥.

انتزاع ملك غرناطة من أبيه وتولى ملكها، فتوجه المستعين بالله إلى مدينة مالقة[١٠١]، والسبب في تلك الفتنة هو تحريض بني السراج[١٠٢] لسعد[١٠٣] وبني أضحى[١٠٤] وبني الثغري[١٠٥] وغيرهم، وبالتالي استغل الصليبيون البرتغاليون ذلك الخلاف حيث قاموا بمحاصرة جبل الفتح [١٠٦]، وهو مدخل الأندلس من ناحية المغرب الأقصى، ومركز نجدة الأندلس منها. وذكر ابن شاهين أن أهلها خرجوا منها بأمان، دون أن يتعرض لهم أحد، بل ساعدوهم على نقل كثيرٍ من أمتعتهم واجتيازهم – المضيق – إلى حيث مأمنهم وذلك ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م [١٠٧].

(١٠٠) ابن الأحمر، وبنو الأحمر هم من أراجونة، وهي مدينة في الأندلس، وينتسبون إلى ذرية سعد بن عبادة، وله مع الصليبيين العديد من المعارك عدة، وجلس في الحكم مدة حكمه حتى ثار عليه ولده بتحفيز من وزراء والده. الحميري، الروض المعطار، ص٢٦؛ ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص٧٦.

(١٠١) يقول ابن شاهين: إن المستعين لجأ إلى مالقة. الروض الباسم، ج ٣، ص٢٦؛ وفي نيل الأمل يقول انه لجأ إلى المرية، نيل الأمل، قسم ٦، ج ٢، ص ٢٠٢.

(١٠٢) بنو سراج: أسرة عظيمة من الفرسان الأقوياء، وترجع أصولهم إلى أهل قرطبة، وينتسبون إلى مذحج. المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٩٥؛ مجهول، أخبار العصر، ص٥٨–٥٩.

(١٠٣) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص ٢٦؛ نيل الأمل، قسم ٦، ج ٢، ص ٢٠٠.

(١٠٤) بنو أضحى: هم من سادة غرناطة، المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٩٥، ج٥، ص١١؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص١٦٦.

(١٠٥) بنو الثغري: تحريف لكلمة الثغريين، وهم النازحون من أراجون أو الثغر، وتعني كلمة الثغر إما لقب أو صفة للعديد من الأسر النازحة من الثغر الأعلى أراجون إلى شتى أنحاء الأندلس، خاصةً في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وهناك الكثير من الزعماء يحملون هذا اللقب، وآل الثغري كانوا من البرابرة ومن قبيلة غمارة، ولها مواقف مشهودة في حرب غرناطة الأخيرة. ابن الآبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ج٢، ص٢٢٧، ٢٣٠–٢٣١؛ محمد عبد الله عنان، دولة الاسلام، ج٧، ص١٦٦.

(١٠٦) جبل الفتح: هو جبل طارق، ومنه انطلق طارق بن زياد لفتح الأندلس، وأمر الخليفة عبد المؤمن الموحدي أن تبنى مدينة عليه واتخذ فيها قصر وجامعًا، ثم يتوالى بناء المنازل بها، ولهذا سمي بجبل الفتح. الحميري، الروض المعطار، ص٣٨٢.

(١٠٧) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، ص ٣٠ – ٣١؛ نيل الأمل، قسم٦، ج٢، ص٢٠١.

انتهز ألفونسو ملك قشتالة وإشبيلية وقرطبة[١٠٨] الخلاف القائم بين الأب والابن، وأدرك أبو الحسن ابنُ المستعين بن الأحمر عدم كفاية خبرته في حرب ألفونسو، فقام باستقدام أبيه من مدينة مالقة[١٠٩]، وعندما خرج الأب سار إلى مدينة أريه (ريه)[١١٠]، وأقام بها ولم يُبدِ ولده أي معارضة، بل طلب رضاه وقدم الاعتذار إليه، مكث بها الأب حتى توفي في آخر سنة ٨٦٩هـ/١٤٩٠م[١١١]؛ ولذا لجأ الابن إلى عقد الصلح مع ألفونسو، حيث ذكر ابن شاهين أنه لما عقدوا العزم على المصالحة بين المسلمين في الأندلس والصليبيين، وفي أثناء تردد الرسل الإسلامية على ألفونسو لعقد الصلح، قام ألفونسو بالاستيلاء على بعض حصون الأندلس، وبالرغم من ذلك تم عقد الصلح[١١٢].

لكن الأندلس لم تخلُ من حروب بينهم، خاصةً في بلاد ألفونسو بقشتالة[١١٣]، ففي عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م اشتدت الفتن في الأندلس، وساد أذى الصليبيين في الليل والنهار[١١٤]، وكذلك بغرناطة عندما توفي السلطان سعد بن محمد بن يوسف المستعين وذلك في أواخر سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٦م، وكان ولده الأكبر علي أبو الحسن الملقب بالغالب بالله قد اعتلى عرش مملكة غرناطة قبل ذلك، لكنه لم يفُز بالحكم إلا بعد نضال مرير بينه وبين منافسيه، وفي مقدمتهم أخواه: الأول يوسف أبو الحجاج، والثاني السيد أبو عبدالله محمد

---

(١٠٨) قرطبة: هي قاعدة بلاد الأندلس، وأم مدائنها، وبها أبواب كثيرة، وبها جامع كبير، وهي على نهر عظيم بقنطرة، وتتصل أحواز قرطبة بإشبيلية، وتختلط مع أحواز مدينة جيان، وبعد ذلك حلت بها المصائب، وتفاقمت بها الشدائد؛ ولهذا لم يبق من أهلها إلا النزر اليسير. الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥٦-٤٥٩؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٢٤- ٣٢٥.

(١٠٩) مالقة: مدينة عامرة في الأندلس، ومن أعمال كورة ريه، ويحيط بها سور من ثلاث جهات، باستثناء جهة البحر ولها ميناء تفد إليه السفن. الحميري، الروض المعطار، ص٥٢٠؛ الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٣.

(١١٠) ريه، كورة في بلاد الأندلس وتقع قبالة قرطبة ونزلها العرب من جنود الأردن، وبها خيرات وفيرة. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٩٧-٠٢٨٠

(١١١) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص ٣٢.

(١١٢) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، ص٣٢؛ نيل الأمل، م٦، ج٢، ص٢٠٧.

(١١٣) ابن شاهين، الروض الباسم، جـ٣، ص ٢١٩؛ المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٥١٢.

(١١٤) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٤، ص ٩٨.

الملقب "بالزغل" ليخوض غمار حياة مليئة بالحوادث والمحن، وكان أبو الحسن أميرًا ذا عزم وشجاعة، وكانت له في أيام أبيه غزوات ظافرة ضد النصارى الإسبان(١١٥).

وانقلب عليه أخوه أبو عبدالله "الزغل" في أوائل حكمه، وكان عندها واليا لمالقة، وكان يضاهيه في الجرأة والشجاعة وحب المناضلة، ولما انتصر أبو الحسن قام أخوه الزغل بطلب العون من ملك قشتالة هنري الرابع Henry IV (٨٥٨-٨٧٨هـ/ ١٤٥٤-١٤٧٤م) يستنصره ضد أخيه وذلك في سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م، فوعده بالتأييد، وقام السلطان أبو الحسن بالإغارة على أراضي قشتالة في سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، وغزاها مرة أخرى في العام التالي، واستولوا على بعض المواقع، وانشغل أبو الحسن في الأعوام الثلاثة التالية بالصراع مع أخيه أبي عبد الله الزغل، الثائر عليه، وكانت الحروب بينهما سجالا، وهذا مما صرف أبا الحسن عن غزو أرض النصارى، وانشغل القشتاليون أيضا بالخلافات الداخلية القائمة بينهم إلى أن توفي ملكهم هنري الرابع في سنة٨٧٨هـ/ ١٤٧٤م(١١٦).

وبالرغم من انتصارات أبي الحسن إلا أنه لم يتمكن من استرداد مالقة التي انسلخت عن طاعته؛ لذا حاصر أبو الحسن مالقة عدة مرات، لكن سكان مالقة الثائرين عليه استدعوا أخاه أبا عبد الله الزغل من قشتالة، وأعلنوه ملكا عليهم، وبذلك انقسمت المملكة إلى قسمين متخاصمين(١١٧).

-استيلاء البرتغال (١١٨) على مدينة أصيلا (١١٩):

وفي عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧٢م قام البرتغاليون المقيمون في مدينة انفي بالزحف إلى مدينة أصيلا(١٢٠)، وتمكنوا من الاستيلاء عليها وعلى بيت مال الوطاسي، وأسروا محمد ابن

(١١٥) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص٧٦؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٩٢.

(١١٦) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٥١١،٥١٧؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٩٢.

(١١٧) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٥١١؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام، ج٧، ص ١٩٢.

(١١٨)وردت عند ابن شاهين بالبرتقال وفي العصر الحديث تسمي البرتغال.

(١١٩) لم يرد ذكر أصيلا وطنجة إلا في إشارة عابرة مما جعلنا نقوم بالاستعانة بالناصري لمعرفة أحداث ما جرى وسكت عنه ابن شاهين. الناصري، الاستقصا، ج٤، ص ١١٦-١١٧.

الشيخ الوطاسي[١٢١] المدعو بالبرتغالي، وزوجته وابنته وجماعة من الأعيان، وكانت كارثة عظيمه على والده، وأُسر مدة سبع سنين عند البرتغال، ثم فك والده أسره[١٢٢].

استيلاء البرتغال على طنجة[١٢٣]:

تمكن البرتغال من الاستيلاء على طنجة في سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م[١٢٤]، حيث ساروا اليها من مدينة سبتة في ألوف من العساكر، وسيطروا عليها، وظلت بأيديهم لمدة أكثر من مائتين وخمس سنين[١٢٥].

أحوال الأندلس بعد تلك الحوادث:

كانت السلطة الأندلسية تشعر بالضعف والعجز، في مجابهة عدوها القوي، وهي بدون حليف ولا ناصر، ولذلك رأى سلطان غرناطة بعد أن تعب من طول النضال، أنه من المستحسن قبول ما فرضه عليه ملك قشتالة من الاعتراف بسلطنة الفنش، مع تأدية الجزية اغتنامًا للسلم والمهادنة، وكانت مملكة غرناطة تمر بمرحلة من الفتن والاضطرابات

---

(١٢٠) أصيلا: مدينة كبيرة وقديمة وعامرة بالخيرات، وتقع في منطقة سهلية، ولها سور بخمسة أبواب، ومشرب أهلها من الآبار، ولها مرسى مأمون، وبها جامع كبير وسوق حافل. الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢؛ الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢١٢– ٢١٣.

(١٢١) بنو وطاس: فرع من بني مرين، ظهر دورهم السياسي بعد مقتل عبد الحق المريني حيث تمكن محمد الشيخ الوطاسي من السيطرة على الدولة من مقره أصيلة والاستيلاء على مدينة فاس، فتصدى له الشريف الجوطي، وتقابل الجيشان في أحواز مكناسة، وانتصر الجيش الوطاسي، ثم دخل محمد الشيخ مدينة فاس في عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م، وتأسست دولة بني وطاس وشهد مطلع تلك الدولة ازدياد في حركات الاسترداد النصارى في بلاد الأندلس بالإضافة إلى ضعف مملكة غرناطة. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص١٥٦؛ الناصري، الاستقصا، ج ٤، ص١١٦؛ أوغست كور، دولة بني وطاس (١٤٢٠– ١٥٥٤)، ترجمة محمد فتحة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠١٠م، ص١٥– ٢٢.

(١٢٢) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، صـ٥٨؛ الناصري، الاستقصا، ج٤، صـ ١١٦.

(١٢٣) طنجة: مدينة قديمة تقع على ساحل البحر المتوسط، وتوجد بها الكثير من الآثار، ويكثر بها الرخام المنحوت، وبينها وبين سبتة حوالي ثلاثين ميلا في البر، وهي آخر الحدود الإفريقية من الغرب. الحميري، الروض المعطار، ص٣٩٦؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٣.

(١٢٤) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، صـ٥٨.

(١٢٥) الناصري، الاستقصا، ج٤، ص ٩٨.

الداخلية[١٢٦]، وتعود أسباب هذا الاضطراب إلى اشتعال نار المنافسة القوية بين أصحاب العرش وبين الأسر النبيلة القوية، مثل بني سراج وغيرهم، واحتدام المنافسة بين هذه الأسر القوية نفسها[١٢٧]، وبين بني الأحمر الذين اعتبروا غرناطة بمثابة ضيعة لهم حق التصرف فيها كما يشاؤون[١٢٨]، ولقد استمتع حكام غرناطة بالمزايا التي في الهدنة الخادعة التي أبرموها مع قشتالة لمدة خمس سنوات تقريبًا، ثم أخذت غرناطة تنحدر بشكل سريع، لتنتقل إلى مرحلة السقوط[١٢٩].

وخلال فترة اضطراب الأوضاع في الأندلس عادت القوات القشتالية في عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م إلى مهاجمة الأراضي الإسلامية، فرد المسلمون عليهم بغزو منطقة جيان[١٣٠] وهزموا النصارى الإسبان هناك، وظلت المعارك سجالًا بين الطرفين، واستولى نصارى قشتالة على عدد من الثغور والقواعد الإسلامية، وهذه من أعظم الضربات التي أصابت مملكة غرناطة، إذ سقط ثغر جبل طارق في أيدي النصارى الإسبان[١٣١]، ويعد سقوط هذا الثغر الحصين في أيدي النصارى سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م، أول خطوة في قطع العلاقة بين مملكة غرناطة وعدوة المغرب، والحيلولة دون قدوم الإمدادات إليها من وراء البحر[١٣٢].

هجوم الصليبيين على طاحون خارج مالقة:

ذكر ابن شاهين أنه حدث خلال فترة تواجده في مالقة شيء غريب في شهر جمادي الأول من عام ٨٧٠هـ/ يناير ١٤٦٦م أن هبت رياح قوية جدا بمدينة مالقة وهم بها، واقتلعت الكثير من الأشجار، مما تسبب في غرق الكثير من المراكب بالبحر وكان من ضمنها

(١٢٦) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، ص٤٠.

(١٢٧) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، ص٧٦.

(١٢٨) مجهول، أخبار العصر، ص ٥٢.

(١٢٩) ابن شاهين، نيل الأمل، قسم ٧، ج ٢، ص ٢٠٧؛ الروض الباسم، ج٣، ص ٤٠.

(١٣٠) جيان: مدينة في الأندلس وهي خصبة، وتحيط بها ثلاثة آلاف قرية، ويربي فيها دود الحرير، وبها جنات وبساتين وفيها مزارع وغلات كالشعير والقمح وشتى الحبوب وجنات وبساتين، ولها مسجد جامع، وأسواق كثيرة. الحميري، الروض المعطار، ص١٨٣؛ الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ١٩٥-١٩٦.

(١٣١) مجهول، أخبار العصر، ص٥١؛ عبد الله عنان، تاريخ الإسلام، ج٧، ص ١٦٧.

(١٣٢) ابن شاهين، نيل الأمل، قسم٧، ج ٢، ص ٣٣٢-٣٤٢.

مراكب الصليبيين البرتغال الراسية على الشاطئ، وكانوا في ذلك الوقت يستعدون لغزو المسلمين، واستمر هبوب تلك الرياح من بعد منتصف العصر إلى فجر يوم الاثنين(١٣٣).
وبالرغم من أعمال القرصنة والحروب إلا أن التجارة ظلت مستمرة بين المسلمين والصليبيين بدليل قدوم عبد الرحمن المعروف بابن النجار وهو المدبر لمملكة تلمسان والمقدر لأعشار(١٣٤) التجارة القادمة من الصليبيين للمتاجرة بمدينة وهران، ومدبر وهران محمد الركاجي(١٣٥).

ولما انتهى ابن شاهين من رحلته لمالقة وهو في الطريق متجه للقاهرة جاءه خبر عن هجوم بعض الصليبيين المتربصين بالمسلمين حيث ذكر ابن شاهين أنه في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر عام ٨٧٠هـ/ الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ديسمبر ١٤٦٥م هجمت جموع من الصليبيين – البرتغاليين – على بعض الطواحين الموجودة في خارج مالقة، فقاموا بأسر مجموعة من المسلمين الذين كانوا يعملون في الطواحين، وأن واحدًا من أسرى الصليبيين، قد هرب من مالقة، ثم قدم دليلًا مع هؤلاء الصليبيين لخطف المسلمين(١٣٦).

وتستمر أعمال القرصنة إذ ظهرت أربعة مراكب للصليبيين قادمة من جهة الغرب من البرتغال وهي محملة بالمقاتلين حتى تهاجم سواحل وهران، ففزع أهالي وهران، لكنهم اجتازوا السواحل دون أن يهاجموهم، ثم اتجهوا إلى بجاية(١٣٧)، وأفزعوا السبل في نواحيها، وأخذوا بعض المارة وأسروا الكثير من المسلمين(١٣٨).

---

(١٣٣) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص ١١٦؛ نيل الأمل، قسم٦، ج٢، ص ٢٣٢.

(١٣٤) أعشار: هي ضريبة تؤخذ من التجار الروم ومن يكون مثلهم إذا دخلوا إلى بلاد الإسلام، وتعد ضريبة جمركية. زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ، ص٣٨٠.

(١٣٥) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص ١٢٧.

(١٣٦) ابن شاهين، الروض الباسم، ج٣، ص ١١٣؛ نيل الأمل، قسم٦، ج ٢، ص ٢٣٢.

(١٣٧) بجاية: هي مدينة عظيمة تقع على ضفة البحر المتوسط، ويحيط بها سور إلا من جهة البحر، وتكثر بها المزارع مثل الشعير والحنطة، والتين والكثير من الفواكه، وتتردد عليها السفن من كل مدن البحر المتوسط، وتوجد بها دار لصناعة السفن بسبب كثرة الأخشاب بواديها، وكما يوجد بها معدن الحديد وتقوم

وبالرغم من ذلك استمرت العلاقات التجارية بين الصليبيين والمسلمين من حيث البيع والشراء، ذكر ابن شاهين أنه عندما كان في تونس يوم التاسع والعشرين من شهر صفر عام ٨٧٠هـ/ الأحد ٢٩ أكتوبر ١٤٦٥م، وردت على ساحل وهران شونة كبيرة[١٣٩] من مراكب الصليبيين الجنوية وهي محملة بقماش الجوخ قادمة من فلندة، وتجهز التجار من تلمسان للتوجه إلى وهران للشراء منهم[١٤٠]، حتى ابن شاهين تجهز أيضا، وعزم على العودة لتلك البلاد بعد دخول تونس والشراء منها [١٤١].

عليه العديد من الصناعات. الحميري، الروض المعطار، ص ٨٠-٨١؛ الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٣٩.

(١٣٨) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، ص ١٣١.

(١٣٩) شونه: هي سفينة حربية كبيرة، وتستعمل بالبحر المتوسط، ومن القطع الكبيرة المهمة التي يتكون منها أسطول الدول الإسلامية والأساطيل الصليبية، وتسير على مائة وأربعين مجدافا، وفيها المقاتلة ويبلغ عددهم حوالي مائة وخمسين رجلا بالإضافة إلى الجدافين، وهي مجهزة للجهاد والغزو في البحر، وهذا النوع من السفن وتقام في هذا النوع من السفن القلاع والأبراج للهجوم والدفاع، وتحتوي على صهاريج لخزن الماء الحلو، وأماكن لخزن القمح، وترمى منه النفط والنار على العدو. درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٨٣-٨٤.

(١٤٠) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، ص ١٨٩.

(١٤١) ابن شاهين، الروض الباسم، ج ٣، ص ١٨٩.

الخاتمة

بعد استعراض مشاهدات ابن شاهين يمكن الخروج بالعديد من النتائج:

– كان لفشل الحروب الصليبية في بلاد المشرق الأثر الكبير في ازدياد حركة الانتقام من المسلمين في الأندلس، خاصةً أن الصليبيين كانوا بين أظهرهم؛ لذا ازدادت حركة الغزو الصليبي وارتبطت بعملية الاسترداد، كما نشطت دعوى البابوية للانتقام لهزيمتهم في الشام.

– كانت لمشاهدات ابن شاهين دورٌ مهمٌّ في توضيح مدى قوة الغرب الأوربي في الانتقام عندما فشلت الحروب الصليبية حيث قاموا بالقرصنة مخترقين بنود المعاهدات والمواثيق الدولية المرتبطين بها مع الحكام المسلمين، وزيادة على هذه القرصنة أصاب المسلمين المزيد من الضعف فظهر الصراع على الحكم بينهم.

– أن الفشل الذي أصاب الحملات الصليبية على شواطئ بلاد الغرب الإسلامي يرجع إلى الصراع الدائر بين الحكام الصليبيين في الأندلس وغيرها.

– قام بعض الحكام المسلمين أثناء فترة الصحوة التي تنتابهم بتبني قضية خلاص المسلمين المأسورين.

– جعل الضعف والانهيار الذي أصاب السلطة الحاكمة بالأندلس الحكام المسلمين في حالة صراع مستمر فيما بينهم، وهذا ما رصده ابن شاهين في رحلته والتي تعتبر الأولى من نوعها في الرحلات، فهو رحالة مشرقي، وجاء في الوقت الفاصل بين ازدهار الحكام المسلمين ونهاية حكمهم، واشتداد حركة الاسترداد الصليبي للمدن الإسلامية هناك.

– كانت مشاهدات ابن شاهين ذات أهمية كبرى في رصد ما أصاب المسلمين من ضعف لدرجة عجزهم عن صد تلك الحملات الصليبية، إضافة إلى انتشار القرصنة الصليبية، بجانب حركة التبشير التي طالت بعض أبناء الأمراء.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

– ابن الآبار، محمد بن عبد الله البلنسي (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م): الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

– ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف (ت ٧٠٨هـ/ ١٤٠٤م): – روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١م.

– النفحة النسرينية، حققه وعلق عليه عدنان آل طعمة، دار سعد الدين، دمشق، ١٩٩٢م.

– تُرميدا، القس إنسلم الشهير بعبد الله الترجمان الأندلسي: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق محمود علي حماية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م.

– ابن تغري بردي، جمال الدين بن أبي المحاسن (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م): المنهل الصافي المستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.

– الجزنائي، أبو الحسن علي (كان حيًا ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م): جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٧م.

– ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م): أنباء الغمر بأنباء العُمر، تحقيق حسن حبشي، وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث الإسلامية، القاهرة، ٢٠١١م.

– الحموي، ياقوت شهاب الدين (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٥م.

– الحميري: محمد عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ/ ١٤٦٣م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

– ابن الخطيب، لسان الدين (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) تاريخ إسبانية الإسلامية، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م

– ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.

– ابن أبى زرع، أبو الحسن بن عبد الله الفاسي (ت ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٨٢م.

– الزركشي، أبو عبد الله محمد بن يوسف (ت٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦م.

– السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت،١٩٩٢م.

– ابن سعيد المغربي، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،١٩٨٢م.

–ابن شاهين، زين الدين عبد الباسط (ت ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م): نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م.

– ابن شاهين، المجمع المفتن بالمعجم المعنون، تحقيق عبد الله محمد الكندري، دار البشائر، بيروت، ٢٠١١م.

– ابن شاهين، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٤م.

– ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد (ت ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م): المن بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م.

– الصوري، وليم (ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م): الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٢م.

– الضبي، أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

– ابن الكردبوس: عبد الملك التوزري (ت٥٧٥هـ/ ١١٧٩م): تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١م.

– مجهول، مؤرخ (ت ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.

– مجهول، مؤرخ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٨م.

– مجهول، مؤلف، أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩١م.

– المراكشي، أحمد محمد (ت ٧١٢هـ/ ١٣١٢م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنبير، عبد القادر زمامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.

– المراكشي، عبد الواحد (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣م.

– المقريزي، أحمد بن علي(ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م.

– المقري، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

– الناصري، أحمد السلاوي (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م): الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

– الوزان : الحسن بن محمد الفاسي (ت ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م): وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة:

– أرسلان، شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣م.

– الأسطى، المبروك غنيه: حركات الجهاد المشترك على مدى قرن في ظل الصلات بين بني الأحمر بغرناطة وبني مرين بفاس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٢٤م.

– أشباخ، يوسف: تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦م.

– برنشفيك، روبار: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.

– بعيزيق، صالح: بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، ٢٠٠٦م.

– سعد عبد الله البشري: "جماعات الفرسان الدينية النصرانية وحروبها مع المسلمين في الأندلس"، ***مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية***، السنة الخامسة، العدد السابع، جامعة أم القرى، ١٩٩٣م.

– البيشاوي، سعيد عبد الله: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠م.

– الحريري، محمد عيسى: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، ١٩٨٥م.

– الحناوي، مصطفى محمد، عصر الحروب الصليبية، الفرسان الإسبتارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٤م .

– الخوجة، محمد: صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، الجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.

– سميث، جوناثان رايلي، الاستبارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، ترجمة: صبحي الجابي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩م .

– شقير، نعوم: تاريخ سينا، القاهرة سلسلة ذاكرة الكتابة رقم ١٥٧، القاهرة، ٢٠١٣م.

– عامر، محمد محمد: " الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، تأليف عبد الباسط بن خليل الحنفي (٨٤٤–٩٢٠هـ) دراسة وتحقيق، بحث منشور في حوليات كلية دار العلوم، العدد الثامن، ١٩٧٧/ ١٩٧٨م.

– عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥م.

– العبادي، أحمد مختار: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

– علام، عبد الله علي: الدعوة الموحدية بالمغرب، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٤م.

– عمران، محمود سعيد: الجماعات العسكرية الدينية في البرتغال في العصور الوسطى، بحث ألقي في ندوة الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (المؤرخ الانسان: سيرة ومسيرة) كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، الخامس من شهر أبرايل، ٢٠٠٨م،
http://www.msomran.com/p1.asp

– عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة القاهرة،٢٠٠١م.

– كور، أوغست: دولة بني وطاس (١٤٢٠– ١٥٥٤) ترجمة محمد فتحة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠١٠م.

– ماستناك، توماش: السلام الصليبي، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩م.

– مالتسان، هاينرش فرايهرفون: رحلة حجي إلى مكة، ترجمة ريهام نبيل سالم، مراجعة عبد الله أبو هشة، دار الحكمة، لندن، ٢٠١٨م.

– مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، ٢٠٠٤م.

– المعاضيدي، خاشع وآخرون: تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ط٢، بغداد، ١٩٨٦م.

– مقامي، نبيلة إبراهيم: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، مطبعة الجامعة، القاهرة، ١٩٩٤م.

– نجم، زين العابدين شمس الدين: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦م.

– النخيلي، درويش: السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

– نور الدين، زرهوني: الطب والخدمات الطبية في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

- Charles-Emmanuel Dufourcq, L'espagne Catalane et le Maghreb, Universities de France, 1966.

- Michele Amara, Diploma Arabia. R. Archive Florentine, Firenze, 1863.